٢٢ ـ المصريون المحدثون
شمـــائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل السادس — عاداتهم

لا يصعب على من اختلط بمجتمع الرجال المسلمين في القاهرة ـ كما قد يتصور الأجنبي ـ أن ينال من غير زواج أدق المعلومات الكثيرة عن شئون النساء وعاداتهن ؛ فأغلب رجال الطبقة الوسطى المتزوجين والقليل من الطبقة العليا يتحدثون طوعاً عن مسائل الحريم إلى من يصرح لهم باستحسانه آراءهم في الأخلاق

ولا تعتبر الزوجة ـ على العموم ـ معتقلة في الحريم ، لأنها تكاد تكون مطلقة الإرادة في الخروج ، وزيارة الصديقات ، واستقبال الضيفات ؛ ولا جرم أنه ليس للجواري هذا الاختيار ، إذ هن سواء خضعن للزوجة كما يخضعن للسيد ، أو للسيد فقط ، تحت سلطة لا حد لها تقريباً . ومن أهم ما يرمي إليه رب الدار بتخصيص حريم منفصل أن يتلافى رؤية الخدم وغيرهم من الرجال لنسائه دون نقاب كما ينص الدين . وتبين الآية التالية أنه يجب على المسلمة أن تخفي عن الرجال ، خلا بعض الأقارب وغيرهم ، ما يلفتهم إلى شخصها أو زينتها : (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ...[1]) ؛ ويشير النص الأخير إلى عادة رن (الخلخال) الذي كان يستعمله نساء العرب في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يزال المصريات يتحلين به[1]

ويجب على أن أذكر هنا تعليقين لمفسرين فاضلين[2] مدرجين في ترجمة سيل Sale للقرآن توضيحاً للآية السابقة ، حتى لا تؤديا إلى فهم العادات المتأخرة الخاصة بدخول الحريم أو عدمه فهما خطأ . والتعليق الأول خاص بكلمة (أو نسائهن) وقد شرحت كما يلي : « أي المسلمات ، ويرى البعض أن سفور المؤمنة أمام الكافرة مخالف للشرع أو للحشمة على الأقل ، إذ لن تعف الكافرة عن وصفها للرجال . ويفترض الآخرون أن هذا الاستثناء يشمل النساء جميعهن على العموم ، وتختلف آراء العلماء في هذا الموضوع » . ولا يعتبر الآن — في مصر وفي كل بلد إسلامي آخر على ما أعتقد — دخول امرأة من أي طبقة أو من أي دين حريم المسلم أمراً مخالفاً

ويتعلق الشرح الآخر بجملة (ما ملكت أيمانهن) : « يشمل هذا الاستثناء جميع الأرقاء من الجنسين ، وكما يرى البعض الخدم غير الأرقاء مثل هؤلاء المنتمين إلى شعب آخر . ويروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه أهدى مرة إلى ابنته فاطمة عبداً ، وعندما أحضره أمامها لم تكن متذرعة بثوب ضاف ، فكان لا بد أن تترك رأسها أو قدمها مكشوفاً ؛ فقال لها الرسول صلى الله عليه وسلم حينما لحظ ارتباكها : أن لا تهتم ، لأنها ليست في حضرة أحد غير أبيها وعبدها » . وقد يكون الحال كذلك اليوم عند عرب الصحراء ، ولكن لم يبلغني قط أنه يسمح للعبد البالغ في مصر أن يرى حريم رجل فاضل سواء كان العبد في خدمة الحريم أو لا . وقد أكد لي أنه لا يسمح بذلك أبداً . وقد يكون سبب منح القرآن عبد المرأة هذا الامتياز استحالة الزواج به ما دام عبداً لها ؛ ولكن ليس هذا موجباً لمنحه حق الدخول إلى الحريم في مثل هذا المجتمع . ومما يستحق الاعتبار أن الآية السابقة لم تمنح الأعمام حق رؤية بنات الأخ أو الأخت مكشوفات الوجه . ويرى البعض أنهم ليسوا

(١) سورة النور الآية ٣١

(١) أنظر إشعيا ٣/١٦ « وقال الرب : من أجل أن بنات صهيون يتشامخن ويمشين ممدودات الأعناق وغامزات بعيونهن وخاطرات في مشيهن ويخشخشن بأرجلهن

(٢) والتعليقان للبيضاوي وجلال الدين — أنظر ترجمة سيل Sale للقرآن ص ٢٦٦

أهلاً لذلك خشية أن يعنفوهن إلى أبنائهم ، ولا يليق بالرجل أن يصف سحنة امرأة أو شخصها ، (كأن يقول أن لها عينين نجلاوين وأنفاً مستقيماً وفماً صغيراً الخ) إلى من تحرم عليه رؤيتها . ولا عيب فى وصف المرأة وصفاً عاماً مثل قولك : « إنها فتاة لطيفة مكحلة بالكحل ومخضبة بالحناء »

ولا يسمح للرجل عامة أن يرى غير زوجته وجواريه ومن حرمن عليه لقرابة أو رضاعة بدون نقاب[1] . وقد أشرت فى الفصل الأول إلى قدم عهد النقاب ، كما ذكرنا أيضاً أن المصريات يعتبرن تغطية أعلى الرأس ومؤخره ألزم من تغطية الوجه ، وحجب الوجه أهم من حجب أغلب أجزاء الجسم الأخرى . فالمرأة التى لا يمكن حملها على كشف وجهها أمام رجل قد لا تخجل من الكشف عن صدرها أو ساقها . وهناك حقيقة كثيرات من الطبقة السفلى يظهرن دائماً سافرات أمام العامة ، ولكنهن مدفوعات إلى ذلك لفقرهن ولصعوبة إحكام الطرحة — التى يندر أن تتجرد منها امرأة — فوق الرأس لتحل محل البرقع ؛ وخاصة إذا شغلت كلتا اليدين فى تثبيت ما يحملن من الأثقال . وتسرع المرأة الجليلة عند ما يصادفها رجل — مكشوفة الوجه أو الرأس — بلبس الطرحة أو إحكام وضعها ؛ وكثيراً ما تصيح : « يا دهوتى ! أو يا ندامتى ! » . ولكن كثيراً ما يدفع الدلال المرأة المصرية إلى كشف وجهها أمام الرجل متظاهرة أنها فعلت ذلك عفواً أو ظنت أنها لا تراه . وقد يتم الرجل أيضاً برؤية وجه سيدة مصرية أحياناً — بينما هى تعتقد حقاً أنها بعيدة عن الأنظار — من شباك مفتوح أو فوق سطح . ويوجد فى القاهرة منازل صغيرة ليس لها غرف سفلى لاستقبال الضيوف من الرجال فيصعد هؤلاء إلى الدور الأعلى صائحين مراراً : « دستور ! يا ساتر ! » ، أو ما شابه ذلك ليفهموا من يصادفون من النساء فى الطريق لينسحبن أو يحتجبن ، فتسحب المرأة فضلة من طرحها أمام وجهها إلا عيناً واحدة . ويصل شعور المسلمين بحرمة النساء إلى درجة غريبة ، حتى أنه يحرم على الرجال تخيل صور بعض النساء ؛ فلا يسمح مثلاً لغير النساء بزيارة زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم وغيرهن من أسرته فى مدافن المدينة . ولا يدفن الرجل والمرأة فى قبر واحد أبداً إلا إذا فصل بين الجثتين حائط . ويوجد مع ذلك من لا يهتم كثيراً بهذا الأمر وإن قل عددهم . ولى صديق مسلم من هؤلاء يسمح لى على العموم أن أرى أمه عند ما أذهب لزيارته . وأمه أرملة فى الخمسين من عمرها تقريباً ، ولكن ضخامة بدنها ودلالة سيماها على عدم الكبر يجعلانها فى سن الأربعين . وتقبل عادة إلى باب غرفة الحريم حيث أستقبل لحلو النزل من غرف سفلى للاستقبال ، وتجلس هناك على الأرض ، — ولكنها لا تدخل الغرفة أبداً . وقد تكشف أحياناً وجهها تماماً كما لو كان الأمر عرضياً ، فتبدو عيناها وقد أحاط بها الكحل الكثير ، كما أنها لا تحاول أن تخفى حليها الماسية والزمردية وغيرها ، بل على العكس من ذلك تحاول إبرازها . ولم يسمح لى صديق برؤية زوجته أبداً مع أنه أذن لى بمحادثتها مرة فى حضوره خلف زاوية فى ممر أعلى السلم

وأعتقد أن نساء مصر لا يضيق عليهن بالشدة المشاهدة — فى البلاد الأخرى الخاضعة للباب العالى ؛ ولذلك ليس من غير المعتاد أن ترى نساء الأوشاب يتدللن ويمزحن مع الرجال علناً ، والرجال يضعون أيديهم عليهن دون حرج . وقد يُظَن أن نساء الطبقتين العليا والوسطى يشعرن بالجور والتعاسة فى عزلتهن ، ولكن ليس هذا هو الحال عادة ، بل على العكس نلاحظ أن الزوجة المصرية التى تتعلق بزوجها قد تظن ، إذا أطلق لها زوجها الحرية أنه يهملها ولا يحبها كثيراً ، وتحسد أولئك اللاتى يخضعن للرقابة الدقيقة

وليس من المألوف أن يتزوج المصرى بأكثر من امرأة ، أو يتسرى بأكثر من جارية ، مع أن الشرع يبيح له أربع زوجات كما أشرت قبلاً ؛ والتسرى ، طبقاً للرأى الغالب ، حسب رغبته . إلا أن الرجل وإن اقتصر على زوجة واحدة يمكنه أن يبدل كيفما شاء . ويقيناً ليس هناك كثيرون فى القاهرة لم يطلقوا امرأة إذا طال أمد الزواج . ويستطيع الزوج أن يطلق زوجه وقتما يريد بقوله : « أنت طالقة » . فإذا استقرت إرادته على ذلك عن صواب أو عن غير صواب ، وجب على المرأة أن تعود إلى أهلها أو صديقاتها . وتعرض المرأة لطلاق لا تستحقه مصدر لأحزان وقلق أشد مما تتعرض له من أى اضطراب آخر . وقد تصيبه

(١) ويسمح للإخوان أن يروا وجه النساء وكفيهن للأطفال

لذلك فى حالة عوز شديد . وهذا التعرض يبدو طبعاً على العكس تماماً لأولئك اللاتى يأملن تحسين حالتهن . ويستطيع الرجل أن يطلق زوجه مرة أو مرتين ويردها إليه فى كل مرة من غير حفل . ولكنه لا يستطيع أن يردها شرعاً فى المرة الثالثة قبل أن تتزوج رجلاً آخر وتطلق منه ، وهذا بعينه نتيجة الطلاق ثلاثاً المعبر عنه فى جملة واحدة : «أنت طالقة بالثلاثة» . ولكن قد يتفق الرجل والمرأة على مخالفة الشرع ، أو ينكر الرجل أنه أوقع يمين الطلاق . وتجد المرأة فى الحالة الأخيرة صعوبة كبيرة فى تنفيذ الطلاق قانوناً إذا أرادت ذلك

وأذكر لتوضيح هذا الموضوع قضية أدخل فيها أحد معارفى شاهداً على يمين الطلاق . فقد كان جالساً فى مقهى مع رجلين آخرين كان أحدهما قد غضب على امرأته لشىء قالته أو فعلته . وأرسل هذا بعد حديث قصير فى هذا الأمر يدعو زوجه التى أوقع عليها يمين الطلاق ثلاثاً وأشهد زميليه على ذلك . ولكنه سرعان ما ندم على فعله وأراد أن يعيد مطلقته ، فرفضت العودة إليه ولجأت إلى (شرع الله) فقدمت القضية إلى المحكمة وقررت المدعية أن المدعى عليه أوقع عليها الطلاق ثلاثاً ويريد الآن ردها إليه لتعيش معه كزوجة على خلاف الشرع . وأنكر المدعى عليه الطلاق ؛ فسأل القاضى المدعية : « هل لديك شهود » فأجابته « عندى شاهدان » . وكانا هما الرجلين اللذين شاهدا الحادث فى المقهى . فقررا أن المدعى عليه طلق امرأته ثلاثاً فى حضرتهما . فأكد المدعى عليه أن التى طلقها فى المقهى كانت امرأة أخرى ، ولكن المدعية نفت وجود زوجة أخرى . فلفت القاضى نظرها إلى استحالة معرفتها ذلك ، وسأل الشاهدين عن اسم المرأة التى طلقها الرجل أثناء وجودهما ، فأجابا أنهما يجهلان اسمها . فطلب منهما أن يقسما إذا استطاعا أن المدعية هى المرأة المطلقة أمامهما . فأجابا أنهما لا يستطيعان ذلك لأنهما لم يريا المرأة سافرة أبداً . فرأى القاضى إزاء ذلك أن يرفض الدعوى . وأجبرت المرأة على العودة إلى منزل زوجها . كانت تستطيع أن تطلب حضور المرأة التى اعترف الرجل بتطليقها فى المقهى ، لكن كان من السهل أن يحضر امرأة تقوم بالدور المطلوب ما دام لا يطلب منها وثيقة الزواج . وفى مصر يعقد الزواج دائماً من غير كتابة ، ومن غير شهادة أحياناً .

عبد الله فهمى

صدر حديثاً

الكف وأسرار النفس

للأستاذ أحمد السنوسى

إخصائى الحالات النفسية

يحوى أحدث تطورات علم الكف به خرائط واضحة تجعلك بسهولة تترجم خطوط الكف فتكشف بنفسك عن إنحاءات خطوط يدك . فتعرف ما يهددك من الأمراض وتتبع طرق الوقاية منها ، وما يسبب لك المضايقات والعقبات وتقضى عليه . وبذلك يكون لك القدرة على تنمية مواهبك واستعداداتك فتصبح قادراً على السير فى الطريق التى تكفل لك الطمأنينة والنجاح فى الحياة . يطلب من المؤلف ٣٣ ش الملكة الفريدة ومن المكاتب الشهيرة ثمن النسخة ٥٠ قرشاً و ٣ قروش للبريد داخل القطر و٥ للخارج .

فى مسابقة اللغة العربية

يصدر قريباً كتاب

« من شعر أبى تمام »

ويشمل المقرر فى امتحان الترقية إلى الثانوى فى النصوص من شعر أبى تمام والقصائد الخمس الأولى من المفضليات مضبوطاً ومشروحاً شرحاً وافياً ومعلقاً عليه مع دراسة مفصلة لشعر أبى تمام وخصائصه بقلم :

محمد محمود رضوان

الثمن ١٠ قروش صاغ ترسل باسم المؤلف بمدرسة بنى سويف الابتدائية الأميرية